

الإستشراق ونقد الإلحاد

Orientalism and criticism of atheism

معروفي العيد

(laid.philo@yahoo.com) الجزائر / جامعة الجزائر 2

تاريخ الاستلام : 2020/08/31 ؛ تاريخ القبول : 2020/11/13 ؛ تاريخ النشر : 2020 /11/ 20

Abstract

المخلص

The interests of the West in the East began in the past, as it constitutes the strategic political and economic framework since the conflict between the Greeks and the Persians, but these interests did not transform and did not crystallize cognitively except in the Middle Ages. Which made its subject the subject of the East, which geographically represents the territories belonging to the non-European continents, or, as the ancient world was called: Asia and Africa.

لقد بدأت اهتمامات الغرب بالشرق قديما باعتباره يشكل الإطار الاستراتيجي سياسيا واقتصاديا منذ صراع الإغريق و الفرس، إلا أن هذه الاهتمامات لم تتحول و لم تتبلور معرفيا إلا في القرون الوسطى، وقد ظهر نتيجة هذه الاهتمامات مفهوم الإستشراق في أواخر القرن السابع عشر بعد أن تراكت الدراسات الغربية التي جعلت موضوعها موضوع الشرق الذي يمثل جغرافيا الأقاليم التي تنتمي إلى القارات غير الأوروبية ، أو كما كان يسمى العالم القديم: أسيا وإفريقيا.

Keywords: Orientalism, atheism, Islam, orientalist.

الكلمات المفتاحية: الإستشراق، الإلحاد، الإسلام، المستشرق.

1. مقدمة:

الاستشراق* اتجاه فكري يعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة و حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة وقد كان مقتصرًا في بداية ظهوره على دراسة الإسلام و اللغة العربية، ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كله بلغاته و تقاليده و آدابه. فالمستشرقون هم علماء الغرب الذين اعتنوا بدراسة الإسلام اللغة العربية، و لغات الشرق و أديانه وآدابه¹.

و يعمل الغرب على أن يكون العلم كله غربي، و لا يريد لغير الغربي أن يكون غريبًا، لأنه يعتقد أنه ليس بإمكانه أن يكون كذلك. و يريد غير الغربي أن يكون غريبًا، لكنه يعمل ألا يكون كذلك.

لقد بدأت اهتمامات الغرب بالشرق قديما باعتباره يشكل الإطار الاستراتيجي سياسيا واقتصاديا منذ صراع الإغريق و الفرس، إلا أن هذه الاهتمامات لم تتحول و لم تتبلور معرفيا إلا في القرون الوسطى، و قد ظهر نتيجة هذه الاهتمامات مفهوم الاستشراق في أواخر القرن السابع عشر بعد أن تراكمت الدراسات الغربية التي جعلت موضوعها موضوع الشرق الذي يمثل جغرافيا الأقاليم التي تنتمي إلى القارات غير الأوروبية ، أو كما كان يسمى العالم القديم: أسيا و إفريقيا.

لقد كان هذا المصطلح يعني ذلك البحث الذي يسعى إلى دراسة الشرق و تفهمه، أما من حيث الدلالة المفهومية فهو خطاب، أو إنشاء لكنه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصور تمثلات أو ألوانا من التمثيل حيث تتخفى القوة و المؤسسة و المصلحة، إنه خلق جديد للآخر، أو إعادة إنتاج له على صعيد التصور و التمثيل، مما يجعل من الاستشراق موضوع معرفة. يكشف من خلاله عن العناصر المتخفية في بنية العقل الغربي، لذلك نحاول في هذه الدراسة كشف و فهم وتحليل البني الأساسية التي أنتجت الخطاب الاستشراقي في الثقافة الغربية. العناصر التي حاولت و تحاول أن تعولم الثقافة الغربية بإنتاجها المتواصل، و تركز آليات الهيمنة و القوة و التمركز

¹ - ينظر في الكتاب الجماعي نحن والغرب²، مقاربات في الخطاب النقدي الإسلامي (معرفي العبد؛ المنهج النقدي عند إدوارد سعيد بنجو زحرحة فلسفة الاستشراق) ط 1 2017 ص 593.

لدفع الثقافة الغربية نحو العولمة الثقافية التي كان الاستشراق خطابها المؤسس. إن هذه الدراسة ليست محاكمة لثقافة ما، وإنما هي مناقشة لسؤال يحتاج إلى دراسات متعددة الاختصاص في العلوم الإنسانية المعاصرة.

و إن الاستشراق ليس متجانساً على النحو الذي يسمح لنا بإطلاق أحكام كلية معه، أو ضده، كما أنه لا يتيح دراسة كنه الهائل، ما لم يتعين المشترك في لسان حال مستشرقين لم يجمعوا كلهم على ما ترجّح وصفه في مكتوبهم عن الشرقيين المنفعلين بمؤدى فعل الآخر بهم بناء، فكانت صور الاستشراق بمثابة مشهد لانعكاس واقع الشرق وإحالاته إلى شيء في منظور المستشرقين الذين كشفوا بهذه العملية عن رأيهم بناء، ليتضح موقفنا من رأيهم، عبر ردود أوضحت مدى استلاب باحثينا إلى ما حدّده الآخر. الاستشراق لنا، أكان هذا بالسخط على ما اختلقه بعض المستشرقين من افتراءات، أم بتقدير المجهود العلمي للبعض الآخر، ففي كلتا الحالتين ثمة أثر وتأثير بنيوي للاستشراق على منطلقات الرد عليه عند مختلف اتجاهات الفكر العربي المعاصر.

وبناءً على ما سبق ذكره نُثير تساؤلنا الآتي: ما ذا نقصد بالاستشراق؟ وما ذا نعني بالإلحاد؟ وما هي أهم الانتقادات اللاذعة التي صوبت إزاء المستشرقين الملحدين؟.

2- فرش اصطلاحى:

1.2. الاستشراق Orientalism: يقول إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق: "أن الاستشراق هو مصطلح يشير إلى كل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه، ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان الأنثروبولوجي أو بعلم الاجتماع أو مؤرخاً، أو فقيه لغة فيلولوجيا، في جوانبه المحددة والعامّة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم هو أو هي بفعله هو استشراق².

ويقدم لنا توبياس هوبينيت TOBIAS HUBIENETTE في مقال له موسوم بـ "الاستشراق بين الماضي والحاضر"، لمحة تاريخية مقتضبة عن الاستشراق بحسبانه حقلاً أكاديمياً، فيلاحظ أن مهام الدراسات الشرقية المبكرة كانت ذات طبيعة لغوية محضة pure، فقد بدأ العلماء المسيحيون في

² - إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة - 2016، ص 200.

العصور الوسطى في وقت مبكر بدراسة اللغة العبرية، ثم في القرن الثالث عشر إزاء الحروب الدينية وبخاصة الصليبية، أضحت اللغة الآسيوية الثانية ضمن قائمة اللغات لغات الشرق اللغة العربية التي صارت لازمة للغربيين لدراسة الشرق، والاستشراق باعتباره موضوعاً للدراسة ترسخ حضوره في الجامعات الأوروبية في بواكير القرن الخامس عشر، فأصبح الخطاب الغربي الاستعماري هو المهيمن فاكسبت بذلك دراسة اللغات طابعاً استعماريّاً واضحاً وبارزاً في الجامعات الغربية³.

2.2. المستشرق ORIENTAL: أطلق لفظ المستشرق على المفكرين المنشغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع في أصل وضعه إلى مفكري الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وإفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفي العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها في الماضي العالم الشرقي، أو دول الشرق⁴.

والذي يهنا هنا بالدرجة الأولى هو ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط فقط أو المنطقة العربية بالذات، ذلك أن متابعة جهود المستشرقين خارج المنطقة العربية عمل فوق - أي خارج الطاقة الشخصية - كما أن دراسات المستشرقين المتعلقة بشعوب العالم الإسلامي من غير العرب كإندونيسيا وباكستان وأندونيسيا ودول الشرق وجنوب شرق آسيا وإفريقيا، كانت في معظم أحوالها تسير على نفس المنهج الطريقة التي كانوا يسلكونها في منطقة العالم العربي، وكان الهدف من محاولات المستشرقين وجهودهم في الدراسات التي قاموا بها في هذه المناطق كلها هو تطويق المد الإسلامي والعمل على

³ Tobias Hubientte, Orientalism past and present : An introduction to a postcolonial critique " The Stockholm Journal of East Asian Studies ; vol 13/2003 ; p80.

⁴ - محمد السيد الجليلند؛ الإستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - مصر - 1999، ص 10

انحساره ووقف نموه المطرد بين أبناء هذه الشعوب المتباعدة وإن كانت أعمالهم تبدو في معظم أحوالها في ثوب أعمى أو أكاديمي، فإن ذلك ينبغي أن لا يحجب عن أعين نواياهم الخفية التي صرح بها معظمهم في المؤلفات والمؤتمرات العلمية التي كانت تعقد بين الحين والحين لهذا الغرض.

3.2. الإلحاد⁵: Athéisme: إن الإلحاد في الاصطلاح هو إنكار وجود الله، ولكن الناس يطلقون هذا اللفظ تارة على إنكار وجود الله، وتارة على إنكار علمه، وعنايته، أو قدرته، وإرادته، ويكفي أن ينكر المرء أصلاً من أصول الدين، أو اعتقاد من الاعتقادات المألوفة، أو رأياً من الآراء الشائعة، حتى يتهم بالإلحاد، فسقراط اتهم بالإلحاد، وحكم عليه بالموت، بالرغم من قوله بوجود إله واحد، وكذلك أفلاطون وأرسطو، وابن سينا، وابن رشد، وديكارت وسبينوزا، لم يسلموا على اختلاف مذاهبهم، من تهمة الإلحاد لمخالفاتهم آراء أهل زمانهم.

وهذا كله يدل على أن مفهوم الإلحاد يختلف باختلاف تصورات الناس واعتقاداتهم، فإذا كان المذهب مخالفاً لاعتقاداتهم عدوه إلحاداً، وإذا كان موافقاً عدوه ديناً وإيماناً. فليس لهذا اللفظ إذن في التاريخ معنى محدود ثابت لاختلاف مفهومه باختلاف الزمان والمكان، ولاختلاف حال العلماء من الجهال، وإذا خوطبوا بما يعزب عن أفهامهم، ويلبو عن أسماعهم.

وربما كان أحسن تحديدا لهذا اللفظ إطلاقه على المذهب الذي ينكر وجود الله، لا على المذهب التي تنكر بعض صفات الله، أو تخالف معتقداً دينياً معيناً أو رأياً جماعياً مقررأ. فالفلاسفة الماديون ملاحظة، لأنهم قالوا أن المادة وجوداً مطلقاً، وأنها علة الحركة والحياة والفكر، والدهريون ملاحظة، لأنهم زعموا أن العالم لا يحتاج إلى صانع، أنه بما فيه مبني على الاتفاق. ولكن إذا قال الفيلسوف:

⁵ - **الإلحاد في اللغة:** الميل عن القصد، والعدول عن الشيء، يقال الحد في الدين والحد، أي حاد عنه وطعن فيه، وأخذ ترك القصد في أمر به، ومال إلى الظلم، وأخذ في الحرام استحل حرمته وانتكها، والإلحاد هو الكفر، والشك في الله. والملحد؛ العادل عن الحق، المدخل في ما ليس فيه، والملحد؛ أيضاً الكافر، والملاحدة؛ فرقة من الفلاسفة يسمون بالدهريين وبالدهرية، فقد ذهبوا إلى قدم الدهر، واستناد الحوادث إليه، كما ذهبوا إلى ترك العبادات رأساً، لأنها لا تفيد، وإنما الدهر بما يقتضيه، مجبول من حيث الفطرة على ما هو الواقع فيه، فما ثم إلى أرحام تدفع، وأرض تبلع، وسماء تقلع، (...) فهم قد أنكروا الصانع المدير، العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً، كذلك بنفسه وبلا صانع. ينظر: **جميل صليبا**، المعجم الفلسفي، ج1 دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، 1982، ص 119.

إن الأجسام لا تحشر، أو قال أن الله لا يعلم الجزئيات، كان كافراً بأصل من أصول الدين لا ملحداً. وكذلك إذا قال بوحدة الوجود، فإن هذا القول لا يستلزم إنكار وجود الله، ولا يجعل صاحبه ملحداً⁶. وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن العلماء، الذين يأتون بالغريب وغير المؤلف من الآراء، يمتحنون في حياتهم، ويمتهنون، ويتهمون، بالكفر والإلحاد والزندقة، ويكاد يكون تطور ومعنى الإلحاد موازياً لتطور فكرة التعصب، فكلما زاد التعصب كثر عدد الملحدين في نظر الناس، والعكس بالعكس⁷.

3- الاستشراق والتبشير الديني

قام المبشرون على اختلاف نزعاتهم الدينية، وتعدد مذاهبهم المتصارعة، وجمعياتهم التبشيرية، برسم خارطة العالم الإسلامي رسماً دقيقاً تناول جميع الجوانب البشرية وغير البشرية، وأعدوا للعالم الإسلامي في خطتهم للإغارة عليه حشداً عظيماً من إرساليات التبشير، وعزموا على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات مذهبية عنيفة؛ بُغية جمع طاقاتهم لمحاربة الإسلام، وهدم دعائمه، وتحويل المسلمين عن تعاليمه، وإيقاف امتداده الطبيعي.

ويستطيع الباحث أن يتطلع على معلومات بالغة الأهمية، تتعلق بأعمال المبشرين في العالم الإسلامي، من البحث المستفيض الذي نشرته مجلة العالم الإسلامي الفرنسية الاستشراقية ثم التبشيرية، في سنة 1912م تحت عنوان الغارة على العالم الإسلامي.

وهذه المجلة كانت تصدرها جمعية اسمها: الإرسالية العلمية المغربية مؤلفة من عديد من المستشرقين، وكان رئيس تحرير المجلة يومئذٍ المستشرق (المسيو ل. شتاليه)⁸.

وباستطاعتنا أن نكشف الأهداف التي يلتقي عليها المستشرقون والمبشرون من كلام (المسيو ل. شتاليه) في مقدمته للبحث المشار إليه إذ يقول: "قلنا في سنة 1910م عندما كنا نخوض على

⁶ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المرجع ذاته، الصفحة 120.

⁷ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المرجع ذاته، الصفحة 120.

⁸ - عبد الرحمن حسن حنبكة المبداني، أجنحة المكر الثلاثية ومخاوفها، التبشير، الاستشراق، الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، ودراسة منهجية وشاملة للغزو الفكري، دار القلم - دمشق - 2000، ص 60.

صفحات هذه المجلة في موضوع السياسة الإسلامية: ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشر مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل، والتثبت من فائدته. ويجدر بنا لتحقيق هذا بالفعل أن لا نقصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان المبشرون وغيرهم، لأن لهذه المشروعات أغراضاً خاصة، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة في هيئتنا الاجتماعية، التي من رأيها الاتكال على الحكومة، وعدم الإقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التي يقوم بها الأفراد، فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذي نتوخاه، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية، نظراً لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة...⁹.

ثم يمضي قدماً هذا الكاتب المستشرق الفرنسي فيستشهد ببعض المؤسسات التعليمية التابعة لبعض إرساليات التبشير في البلاد العربية والتركبة ثم يقول: "ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة، وتدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية من حيث أنها تبث الأفكار الأوروبية"¹⁰.

ونجد المبشر القسيس "زويمر" الذي كان رئيساً لإرسالية التبشير في البحرين بمؤازرة بعض رفاقه في مهنة التبشير كتاباً بعنوان: "العالم الإسلامي اليوم"، جمع فيه طائفة من التقارير والمباحث التاريخية والاجتماعية، مما كتبه المبشرون عن أحوال المسلمين القاطنين في منطقتهم التبشيرية، وخلاصة من أعمال المبشرين التي قاموا بها في مختلف البلاد، وما نتج عنها من ثمرات لصالح مهمة التبشير.

وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب الإلحاح على ضرورة التبشير بين المسلمين، وانتقاد المؤسسات التبشيرية العالمية بأنها ارتكبت خطأ كبيراً بتركها المسلمين وشأنهم، إذ ظهر لها أن أهمية الإسلام هي في الدرجة الثانية بالنسبة إلى ثمانمائة مليون وثني رأت أن تشتغل بهم، ولم تنتبه إلى خطر الإسلام وحقيقة قوته وسرعته نموه إلا منذ ثلاثين عاماً فقط (أي: رجوعاً من تاريخ كتابة زويمر كتابه هذا الذي ظهر في أوائل القرن العشرين).

⁹ - المرجع نفسه، الصفحة 61.

¹⁰ - المرجع نفسه، الصفحة 61-62.

وجاء في مقدمة هذا الكتاب أيضاً: أن أبواب التبشير صارت مفتوحة الآن في ممالك العالم الإسلامي، مثل الهند، والصين الجنوبية الشرقية، ومصر وتونس والجزائر. ومن النصائح التي جاءت فيها للمبشرين مايلي:

1- يجب أن يكون تبشير المسلمين بوساطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطع أحد أعضائها.

2 - ينبغي للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم المسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد ناما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء.

وفي هذا الكتاب فصل من بعنوان: "الإسلام في مصر" وقد تضمن هذا الفصل ملخص أعمال المبشرين البروتستانت في مصر، والوسائل التي يتذرعون بها، والنتائج التي توصلوا إليها.

وفيه أهم معاهد التبشير التي أنشئت في مصر المعهد الذي أسسته جمعية اتحاد مبشري أمريكا الشمالية سنة 1854م وقد استطاع المبشرون منذ هذه الحقبة حتى سنة 1904م أن يحتكوا بالمسلمين عن طريق مؤلفاتهم ومدارسهم وعن طريق المحاضرات العامة التي يقيمونها مرتين في كل أسبوع، للموازنة والمناظرة بين الإسلام وبين الدين المسيحي، ويحضر هذه المحاضرات جمع غفير من المسلمين، ويسمح لهم أن يتكلموا. وقد غدا لدى مدارس المبشرين في القطر المصري (3000) ثلاثة آلاف طالب مسلم، وخُمس هؤلاء من البنات المسلمات. وفي سنة 1882م تأسس في مصر معهد علمي للتبشير، تابع لجمعية تبشير الكنيسة، وله أربع فروع كما يلي¹¹:

الأول: قسم طبي.

الثاني: مدرسة للصبيان.

الثالث: مدرسة للبنات.

الرابع: مدرسة لنشر الإنجيل.

وينشر مبشرو هذا المعهد مجلة أسبوعية، وكراسات، ولهم مكتبة خاصة بهم، وكان لأعمال هؤلاء المبشرين نتيجتان:

¹¹ - المرجع نفسه، الصفحة 68.

الأولى: إخراج عدد قليل من الشبان والفتيات عن الإسلام، وغرس العقائد التبشيرية في قلوبهم.

الثانية: تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار غير الإسلامية.

4- المستشرقون الملاحدة ودحضهم للإسلام:

تنوعت اهتمامات المستشرقين بالإسلام وتعددت اتجاهاتهم، بحيث شملت كل فروع الثقافة الإسلامية تقريباً، وأسسوا مدارس وأقساماً في الجامعات الأوروبية تخصصت في هذه الدراسات الشرقية، واستقدموا لها بعض أبناء العالم الإسلامي ليتعلموا بها عن طريق المنح الدراسية وعن طريق التبادل الثقافي بين الجامعات، وحصل كثيراً من أبناء العالم الإسلامي على درجاتهم العلمية من هذه الجامعات الأوروبية، ومن جهة أخرى عملت بعض الدول الأوروبية على إنشاء جامعات ومدارس في كثير من البلاد الإسلامية تعمل تحت إشرافها العلمي وخططها الدراسية، ولا تكاد تخلو بلد إسلامي من هذا النوع من المؤسسات التعليمية التي تخضع في تمويلها ومناهجها العلمية لدول أوروبا، وفي معظم الأحوال فإن أبناء هذه المدارس، وخريجها يكون ولاءهم الثقافي والحضاري والسياسي لهذه الدول التي تلقى تعليمها فيها أو تحت إشرافها.

ومن الجهود التي قام بها المستشرقون، أنهم قاموا بوضع الموسوعات العلمية الإسلامية، والقاموس الإسلامي، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ورغم الأخطاء الكثيرة التي وقعت في دائرة المعارف الإسلامي أو في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، إلا أن هذه الأعمال قد أدت خدمات جليلة للباحثين ووفرت كثيراً من الجد والوقت للدارسين، والأخطاء التي وقعت في هذه الدوائر المعرفية قد انتقلت منها إلى الكثير من أعمال الدارسين وقبولها على أنها قضايا مسلمة وشاعت هذه الأخطاء بين المهتمين بالدراسات الإسلامية من العرب وغيرهم.¹²

كذلك امتدت نشاطات المستشرقين في مجال الدراسات العربية والإسلامية فعدوا المؤتمرات والندوات وألقوا المحاضرات في الجامعة العربية والإسلامية، فضلاً عن تأليف الكتب والاشتغال بتحقيق التراث العربي والإسلامي في مجالات كثيرة كما تسللوا إلى المجامع اللغوية في كثير من البلاد، فأصبح بعضهم أعضاء عاملين في مجمع اللغة العربية بمصر، وفي سوريا، وبغداد، والمغرب، وتونس ولا

تكاد تخلو جامعة أوروبية الآن من متخصص في الدراسات الشرقية والإسلامية، وكانت أكثر دول أوروبا اهتماماً بهذه القضية فرنسا، فأنشأت بها أقدم مدرسة للدراسات العربية منذ القرن الثاني عشر في "دايمس" بأمر البابا سلفستر، ثم مدرسة شارتر سنة 1117م، وأنشأ البابا هونوريوس معهداً للغات الشرقية سنة 1258م.

ولقد اختلفت مواقف المستشرقين من الفكر الإسلامي وقضاياه تبعاً لاختلاف أديانهم أو مذاهبهم الفكرية والسياسية، لأننا نجد بين صفوف المستشرقين اليهودي الحاقدي على الإسلام وأهله، والمسيحي الراهب المبشر بدينه، والشيوعي الملحد الذي لا دين له، ولا بد أن تختلف مواقف هؤلاء جميعاً تبعاً لانتمائهم الفكري والعقائدي، ولكن على سبيل العموم كان أسوأ هؤلاء جميعاً المستشرقون الملحدون، فمنهم من يتهم الإسلام بأنه دين فرضه محمد وأتباعه بقوة السيف والحروب وفيهم من ينكر نبوة محمد أصلاً ويرو أن ما جاء به من تعاليم قرآنية أخذها عن أحبار اليهود وكهانة النصارى¹³.

ويُجادل إدوارد سعيد بأن الاستشراق أنتج وجهة نظر عدائية حول الشرقيين و المسلمين العرب، و يعتقد " بأن الإسلام كان لأوروبا، صدمة دائمة"¹⁴ ، و هو يحاول دعم هذه الفكرة بعدة أمثلة من الكتابات الغربية، و يشير على سبيل المثال إلى أن -اللورد كرومر- في كتابه -مصر الحديثة- يصور الشرقيين و العرب على أنهم سذج، مجردون من الطاقة و المبادرة، و مجبولون على التملق المفرط، و الخداع، و القسوة على الحيوانات، و الكذب، و يفهم بأنهم " خاملون و مريبون، طباعهم تختلف كلياً عن طباع العِزق الأنجلوسكسوني"¹⁵ ، و ينقل إدوارد سعيد عن -نورمال دانيال- في كتابه -الإسلام و الغرب- بأن النبي محمد صلى الله عليه و سلم ينظر إليه في الغرب بأنه نبي الوحي الكاذب، و قد أصبح في عيون الغربيين مثالا " للفجور، و الفسق، و الشذوذ، و أنه

¹² - محمد السيد الجليلند، الإستشراق والتبشير قراء تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 1999، ص 25.

¹³ - المرجع السابق، ص ص 27-28.

¹⁴ إدوارد سعيد، الإستشراق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط01، 2006، ص 59.

¹⁵ إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، تر: أسعد الحسين، دار نينوي للدراسات و النشر و التوزيع، سورية- دمشق، (ط)، 2011، ص

منظومة كاملة من الخيانات المختلفة¹⁶، و يؤكد سعيد أيضاً بأن القرآن لم يسلم من الهجوم العدائي للكتاب الغربيين، -فتوماس كارلايل- يصف القرآن بأنه " خليط مشوش مضجر، خام، فج، تكرر لا نهائي، إسهاب ممل، تعقيد، و باختصار هو خام، ركيك، غباء لا يحتمل"¹⁷.

ويرى إدوارد سعيد أن فهم الإسلام لدى الغرب انطوى على محاولة تحويل تنوعه إلى جوهر وحداني غير قابل للتطور. و قلب أصالته إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية. و مسخ شعوبه إلى كاريكاتورات مثيرة للربح. و مثل أية سلعة ناجحة رائجة، كان الشرق المصنّع ممنوعاً من التبدل. وإذا حدث و دخل جزء من تاريخه في تناقض مع خصائص السلعة كما رسمها المستشرقون، فإن هذا الجزء سيُجمع و يُبطل و يُلغى. وكتب سعيد " التاريخ و الاقتصاد و السياسة ليست على أي قدر من الأهمية هنا. الإسلام هو الإسلام، و الشرق هو الشرق."¹⁸

5- موقف بعض المستشرقون الملاحدة من النبي والقرآن الكريم:

يرتبط موقف المستشرقين من القرآن الكريم بموقفهم من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم يقفون من النبي موقف الإنكار المطلق، وقد ينكر بعضهم أصل النبوة أصلاً ولا يعترف بهم إطلاقاً، لأي من أنبياء الله ورسله، وهذا الإنكار يترتب عليه القول بأن محمد ليس نبياً وبالتالي فإن القرآن حسب زعمهم لا يكون وحياً من السماء، وإنما هو من عند محمد ومن وضعه هو، وليس كتاباً إليها ولا وحياً سماوياً.

ويقول في هذا السياق المستشرق " غوستاف لوبون": " يجب اعتبار محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسي الديانات ولا تعجب لذلك، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات، ويقودون الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول...وقادوا البشرية"¹⁹.

¹⁶ إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: محمد عناني، مرجع سابق، ص 62.

¹⁷ المصدر نفسه، ص 152.

¹⁸ إدوارد سعيد، صور المثقف، تر: غسان غصن، مر: منى أنيس، دار النهار للنشر، بيروت، (ط)، 1996، ص 50.

¹⁹ - محمد السيد الجليلند، الإستشراق والتبشير قراء تاريخية موجزة، مرجع سابق، ص 32.

ولقد وضع هذا المستشرق كتابه عن: "حضارة العرب" وصرح فيه بآراء وأفكار تدل على جهله بالوحي والنبوة وطبيعة الحضارة الإسلامية، وبطبيعة الحياة الخاصة للرسول فهو يتهمة بالشهوانية في حياته الزوجية، ويُرْتَب على هذا الاتهام مجموعة من الأحكام التي تدل على جهله بخصوصيات الرسول. ويجعل القرآن دليلاً على عبقرية الرسول وإبداعه أو يضعه في مكانه، أدنى من كتب الهندوس الدينية، ويرى أنه كتاب مؤقت بعصره لا يُحقق حاجات الناس في عصور لاحقة بل يجعله السبب في تخلف المسلمين²⁰.

أما المستشرق الملحد النمساوي اشبرنجر **Aloys spernger** ففي كتابه الشهير: "حياة محمد وتعاليمه" فعلى الرغم من أن كتابه هذا استغل معظم المصادر العربية المتعلقة بسيرة النبي، وعلى الرغم من أنه عاش قُرابة أربعة عشر عاماً بين المسلمين في الهند، فإن كتابه هذا حافل بالإلحاد والتصورات الزائفة، والأحكام المسبقة، فهو ينساق وراء الرأي القديم عند من كتبوا عن النبي من الأوروبيين، القائل بأن محمد النبي كان مصاباً بهستيريا الأعصاب، ومن أعراضها انتشار الأعصاب وتقلصها، وارتجاف الشفتين واللسان، ودوران الأعين مرة إلى هذا الجانب وأخرى إلى الجانب الآخر. وزعم أيضاً أنه كان مصاباً بهستيريا الرأس التي تؤدي إلى السقوط على الأرض، وإحمرار الوجه، وصعوبة النفس والشخير.²¹

ثم هناك المستشرق أرنست رينان (1823م / 1892م) الذي أولع بابن رشد وفلسفته فجَزَّه ولعَهُ إلى ربط النحو العربي بمنطق أرسطو، وهو الذي جاء بنظرية الأجناس المعروفة، فقد صرح في كتابه: "تاريخ اللغات السامية": "بأن الجنس السامي دون الجنس الآري وأقل منه حظاً في قِليباته الفكرية، وقد تأثر بهذه النظرية الكثرة من المستشرقين من معاصريه ومن جاء بعده ممن عني بالدراسات العربية والإسلامية من أوروبيين وغيرهم وخاصة أولئك الذين درسوا في فرنسا وإنجلترا وألمانيا في بداية هذا القرن. وخلاصة نظرية رينان كما وردت في مفصلة في كتاب "تاريخ اللغات

²⁰ - المرجع ذاته، الصفحة، ذاتها.

²¹ - عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط3 تموز/يوليو 1992،

السامية" تتجلى في انسياق فطرتها إلى التوحيد في الدين وإلى البساطة في اللغة والصناعة والفن والمدنية، وأما العقلية الآرية فيميزها ميل فطري إلى التعقيد وانسجام التأليف²².

لكن شهرة رينان في البلاد العربية منذ سنة 1883م حتى اليوم إنما ترجع إلى محاضرة ألقاها في السوربون بتاريخ 29 مارس سنة 1883 عنوانها: " الإسلام والعلم" ونشرت في Journal Débats بتاريخ 30 مارس 1833. وسنذكر الآراء الرئيسية في هذه المحاضرة، والمثيرة للجدل²³:

1.5. ما يسمى بالعلم عند العرب ليس فيه من العروبة إلى الاسم: وقد حدث للعربية ما حدث للغة اللاتينية؛ فكون الكتب العلمية في العصور الوسطى الأوروبية وعصر النهضة وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر قد كتبت باللاتينية. لا يعني البتة أن لروما أي إسهام فيها. كذلك كون الكتب العلمية التي كتبها ابن سينا وابن زهر وابن رشد وغيرهم؛ قد كتبت بالعربية لا يعني أن فيها شيئاً أنتجه الجنس العربي، وهذه الفكرة هي التي ردها ابن خلدون في "المقدمة" مؤكداً أن حملة العلم في الإسلام كلهم من الأعاجم وليس بينهم أي عربي. إذ يقول: "إن ما يميز المسلم تمييزاً جوهرياً هو كراهية العلم، والاقتناع أن البحث لا فائدة منه، أنه عبث، وشبه كفر، علم الطبيعة لأنه منافسة لله، والعلم التاريخي، لأنه وهو يتعلق بالآزمنة السابقة على الإسلام، يستطيع أن يبعث أخطاءً قديمة".

2.5. الإسلام اضهد دائماً " العلم والفلسفة": لكنه يميز بين فترتين:

الأولى تمتد من البداية حتى القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وتستمر حتى أيام رينان في الفترة الأولى وقد نخرت الفرق في الإسلام وطامنت من شدته المعتزلة التي هي نوع من البروتستنتية، كان الإسلام أقل تنظيمًا وانضباطاً وأقل تعصباً؛ أما في الفترة الثانية، حين وقع الإسلام في قبضة شعوب التتار والبربر " وهي شعوب وقبلية متوحشة مجردة من العقل".

²² -Renan, E, Histoire général et système compare des langues sémitique , Paris 1897
p 165.

²³ - عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين؛ ينظر في الصفحة: 313، 314، 315.

3.5. والأحرار الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفون الإسلام: إن الإسلام هو التوحيد غير المميّز بين ما هو روحي وما هو دنيوي، إنه سيطرة عقيدة، وهو أثقل قيد حملته الإنسانية. وفي النصف الأول من العصور الوسطى احتمل الإسلام الفلسفة، لأنه لم يستطيع منعها؛ وهو لم يستطيع منعها، لأنه كان غير متماسك، ولم تكن له الأداة الكافية للإرهاب، فالشرطة كما يصرح رينان كانت في أيدي النصارى، وكانت مهمتها الرئيسية هي مطاردة محاولة شيعة علي، فسرب الكثير من الأشياء من خلال خروق هذه الشبكة الواسعة الخروق. لكن حينما صارت للإسلام جماهير شديدة الإيمان، فإنه دمّر كل شيء، وصار الإرهاب الديني والنفاق هو الأمر المعتاد. لقد كان الإسلام متحرراً لما كان ضعيفاً، لكنه صار عنيفاً لما أصبح قوياً.

وممن يجتر هذا الباطل أيضاً، المستشرق الهولندي "رينهانت دوزي" المتوفي عام 1883م، في كتابه: تاريخ الإسلام، و المستشرق " فون كريم" المتوفي عام 1889م في كتابه تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام، وكذلك المستشرق الألماني " جريمه" في كتابه محمد الذي أخرجه سنة 1904م والمستشرق الألماني " ويلهام رودلف" في كتابه: صلة القرآن باليهودية والمستشرق جرونيباوم " في كتابه حضارة الإسلام. والمستشرق الفرنسي " مكسيم رودنسون" في كتابه " محمد"، وكثيرون وغيرهم ساء ظنهم في الإسلام ونبيهم عليه الصلاة والسلام.

ونافل القول، أن هنالك ما يشبه الإجماع لدى بعض المستشرقين - قديمهم وحديثهم - على أن الإسلام دينٌ بشريّ، اخترعه محمد ولفقه من مشارب عديدة، على رأسها اليهودية والنصرانية، ثم غيرهما من المصادر كالتقاليد التي كانت سائدة في عصره بالجزيرة العربية، وبعض الديانات القديمة.

6-الإستشراق ونقد الإلحاد

لقد قام المستشرق الهولندي هادريان ريلاند²⁴ ADRIANUS ELANUDUS (1676م - 1718 م) بوضع كتابه: "في الديانة المحمدية" - وقد كتبه باللاتينية، وعنوانه الكامل هو: De religione Mohamadedica Libri duo. Quorum prior exhibet Compendium Theologiae Mohamadedica, ex Codice mso. Arabice editum. Latine versum et Notis ILLUSTRATUM. Posterior examinatonnulla quae falso tonnulla. Ultrajecti, 1705. والذي عرض فيه قسمين؛ الأول يتناول فيه خلاصة اللاهوت المحمدي،

والثاني يفحص عن بعض الآراء المنسوبة كذباً إلى المسلمين.

وينقسم الكتاب - كما ورد في هذا العنوان - إلى قسمين: الأول هو تحقيق لكتاب موجز في العقائد الإسلامية لمؤلف مسلم، نشره عن مخطوط عربي، وترجمه إلى اللاتينية مع تعليقات وفيرة.. وبهذا يقدم للقارئ الأوروبي عرضاً أميناً للعقيدة الإسلامية كما يفهمها المسلمون . والقسم الثاني يفحص عن بعض الآراء الباطلة - المنتشرة في أوروبا منذ العصر الوسيط حتى القرن السابع عشر - عن الإسلام والقرآن، والسنة المحمدية، ويحاول تصحيحها استناداً إلى القرآن والسنة ومؤلفات المسلمون، وبهذا كان أول أوروبي حاول تبرئة الإسلام من التهم الباطلة التي اخترقها المستشرقون الملحدون في أوروبا، وشوّهوا بها حقيقة الإسلام غالباً عن قصد وضغينة. وهو يبين بالنسبة إلى كل فرية من هذه المفتريات - من كان أول من قالها من المسيحيين في الشرق - مثل يوحنا الدمشقي وغيره من رجال الدين الذين عاشوا في رعاية الإسلام - أو في الغرب .

ولم يكتف ريلاند بمؤلفه هذا عن الإسلام فأفرد للإسلام جانباً كبيراً ومساحة واسعة من دراساته حيث وضع بحثاً عن " القانون الحربي عند المسلمين" 1708م، كما حقق كتاب تعليم " تعليم المتعلم" لبرهان الدين الزرنوجي وترجمه إلى اللاتينية، واهتم أيضاً بالنقوش والنقود التي عثر عليها في فلسطين وكتب في هذا الموضوع كتاباً بعنوان " فلسطين موضحة بحسب الآثار القديمة" 1714م.

وبالرجوع إلى كتاب ريلاند الأشهر " الديانة المحمدية" نجد أن هذا الكتاب أثار وفقاً لكتابات الباحثين والمؤرخين حول الإستشراق والمستشرقين، ومنهم الفيلسوف عبد الرحمان بدوي والكاتب إدوارد سعيد، اهتماماً عظيماً لدرجة أدت إلى اتهام مؤلفه بأنه يريد القيام بعمل دعائي في صالح الإسلام في حين أنه لم يكن يقصد إلا الوصول إلى فهم الدين الإسلامي فهما صحيحاً وهو ما دفع الفئات المسيحية المتشددة وحتى المستشرقين الملاحدة إلى محاربته بشكل شديد واصلت لدرجة إدراج الكنيسة الكاثوليكية للكتاب في قائمة الكتب المحرمة تداولها.

وعلى الرغم من ذلك الهجوم الشديد الذي انصب على الكتاب فإن ذلك لم يمنع ترجمة الكتاب إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والإسبانية لتتسع أهمية الكتاب وتزداد حوله الآراء الجدلية.

ويشير ريلاند في مقدمة الكتاب إلى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها، إما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصد خبيث وهو ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى.

ويمضي ريلاند في هذا السياق قائلاً: "إن المرء يصح له حقاً أن يبحث أن الحقيقة حيثما كانت"، ولهذا عمد ريلاند عرض الإسلام لا كما يظهر من خلال منظور الجهل به والحد وكراهية الغرب له، وإنما كما يدرس حقيقة في مساجد المسلمين ومدارسهم حيث رأى ريلاند أنه لم يحدث أن تعرض دين من الأديان في هذا العالم وفي أي عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء.

ويقول ريلاند في هذا المنحى: "وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمية... كما لو كان الأمر أنه لا يوجد في تعاليم محمد شيء صحيح وأن كل ما فيها فاسد، وإذا أبدى أحد رغبة صادقة في التعرف على الإسلام لا تقدم له إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات".

²⁴ - عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين؛ ينظر في الصفحة 307.

ومن هنا يرى ريلاند أن الوسيلة الصحيحة للتعرف على حقيقة الإسلام هي بتعلم اللغة العربية والتعامل المباشر مع الإسلام حيث يقول "ينبغي على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمد نفسه وهو يتحدث في لغته، كما ينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يرى بعينه هو وليس بعيون الآخرين، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن... فقد أعطى الله العقل لكل الناس، وقد كان في رأيي دائماً أن ذلك الدين الذي انتشر انتشاراً بعيداً عن آسيا وإفريقيا وفي أوروبا أيضاً ليس ديناً ماجناً أو ديناً سخيلاً كما يتخيل الكثير من الملحدين".

كما نجد المستشرق الألماني يوهان جاكوب ريسكه REISKE JOHANN JACOB

(1716م - 1774م) هو الآخر قد دفع عن الإسلام ورد على تفاهات الملاحدة، فعلى حد تعبيره شعر برغبة قوية ملحة في تعلم اللغة العربية، ومن أجل تقانيه في حب اللغة العربية، واهتمامه بتاريخ العرب، وتقديره لقيمة الإسلام، لم يؤبه بنبوغه، وبقيمة توجهه الفكري، فاتهم بالزندقة، وحرّم من الكرسي الجامعي، وكانت حياته أقرب إلى التشرّد. فما كان إلا أن قال عن نفسه: "لقد أصبحت شهيد الأدب العربي".

1.6. كلمة عن المستشرق ريسكه

من أوائل المستشرقين الألمان الكبار. ولد عام 1716م في مدينة في اتسورريك بنواحي هله halle، في أسرة فقيرة كان أبوه دباغاً، توفي وهو صغير فأودع ملجأً للأيتام في مدينة هاله، وأتقن اليونانية واللاتينية في المدارس الابتدائية والثانوية.

ترك ريسكه مدينة هاله سنة 1733م واتجه لليبزيغ Leipzig حيث ابتدأ بدراساته الجامعية، بعد نيله لمنحيتين لاستكمال دراسته من المجلس البلدي لهذه المدينة. وساعده المستشرق الهولندي ألبير سولتنز اسخولتنز Albert Schultenes (1686م - 1750م) على الدخول إلى مكتبة ليدن ففهرس مخطوطاتها. ووجهه وجهة الشعر العربي، ونشب بينهما خلاف في الأدب العربي كان سبباً في تعطيله عن نيله دكتوراه، وتحول إلى الطب فنال فيه الدكتوراه سنة 1774م. وفي هذه السنة رجع إلى ليبزيغ؛ فتمت محاربته، وساءت أحواله، وحرّم من الأستاذية في إحدى الجامعات الألمانية؛ فقبل أن يُعيّن مديراً لإحدى مدارسها الثانوية. ومع وضعيته هذه، انصرف إلى الدراسات العربية؛

فمنحه البلاط لقب أستاذ ورتب له راتباً إلى أن توفي مسلولاً، فأهدت أرملته إلى ليسنج (Lessing) الشاعر الألماني الشهير، ثم اشتراها دانماركي، ووقفها على مكتبة كوبنهاغن.²⁵

2.6. ريسكه نقده للإلحاد والدفاع عن العقيدة الإسلامية

إذ يعتبر ظهور الرسول وانتصار دينه في عداد الأحداث التاريخية التي يعجز العقل البشري عن سبر غورها. ويرى في هذه الأحداث مظهراً لعناية القدرة الإلهية، في ما يعتبر وصول بني أمية إلى السلطة وقصة شيعة علي المأساوية مشيئة إلهية. ويشارك التوجه الشيعي المستقيم مصادره التاريخية التالية: كأن يرى في علي الخليفة المسمى بعد الرسول، الذي اضطر لأن يناضل زهاء 24 سنة دفاعاً عن حقه في الخلافة نتيجة لدسائس هيئة المنتخبين، ورأى فيه أفضل أمير عرفه العالم الإسلامي، مقدماً عادلاً، ولكن أطيح به من قدر معاكس وبموقف عائشة. ورأى في كفاحه ضد معاوية تجسيدا لانتصار الحيلة على القوة والباطل على الحق. وبلغ به الحد الأدنى أن قارن علياً (بمارك أوريل) الفيلسوف المترعب على العرش.²⁶

إن هذه النزعة لإبراز القيمة النموذجية للأحداث التاريخية، وإبانيتها من خلال المقارنة مع الظواهر الأخرى المشابهة في التاريخ الأوروبي، أغرته دوماً بإماطة اللثام عن نظائر جديدة بين التاريخ الإسلامي والأوروبي بهدف إطلاع قرائه على مشاهد فذة غنية بالمعرفة لعبت على شاشة الشرق أيضاً.

وفي وقت مزامن لهذا تقريباً كتب ريسكه كتابه (مبادئ، الإسلام...)، وتلقى من بلاد درسدن لقب الأستاذية ومرتباً تقاعدياً مقداره 100 تاليرن سنوياً لم تدفع له بانتظام، كما أنها لم تدفع له بانتظام، كما أنها لم تدفع له أبداً لسنوات عدة بعد عام 1755. واتهمته الكنيسة بالزندقة. وبالرغم ذلك أبي أن يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه نبي مزيف ودجال، وأن يصم أذنيه عن تعاليمه لأنها

²⁵ - يوهان فوك، في تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي - بنغازي - 2002، ص 110.

²⁶ - المرجع ذاته، الصفحة 117.

محض أساطير. ولم يصنف تاريخ العالم إلى شقين، شقٌ مقدس وآخر مدنس، بل وضع العالم الإسلامي في نقطة الوسط من التاريخ البشري²⁷.

ومن خلال نظرته هذه، يرى أن: "ظهور النبي محمد وانتصار دينه هما من أحداث التاريخ التي لا يستطيع العقل الإنساني إدراك مداها، ويرى في ذلك برهاناً على تدبير قوة إلهية قديرة"²⁸.

3.6. ما سر اضطهاد رابكة واتهامه بالزندقة؟

لعل أهم الأسباب التي وراء ذلك:

- تعلقه بالعربية وحُبُّها، ودفاعه المستميت عنها.
- دعوته أن تصبح اللغة العربية مادة مستقلة عن بقية اللغات السامية الأخرى.
- واستبعاده لها عن الدراسات اللاهوتية التي كانت سائدة في العصور الوسطى الأوروبية.
- رفضه أن تبقى الدراسات العربية في خدمة الفيلولوجيا الدينية وتفسير التوراة.
- تحديه لخصومه من العلماء، وكان من عاداته إعادة النظر في مشكلات مناهج البحث وإقامة الدليل على أن محاصيل البحوث العلمية مشكوك فيها.
- ونشأ عن اندفاعه في حب العربية؛ كراهية الأستاذ له: إذ لم يأخذ عنهم العربية؛ معتمداً في ذلك على نفسه، مع نقده لطرقهم في بحثهم لاشتاقات السامية، وزاد من معاداتهم له مجاهرته بنقده لتجاربهم اللغوية دون مراعاة لنفوذهم.

ونتيجة لكل ذلك اضطهد فكرياً وعلمياً، واتهم بالزندقة لتعاطفه مع الديانة الإسلامية. وذكر د. بدوي أن اللاهوتيون كانوا يبغضونه أشد البغض؛ لأنه مجد الإسلام، ولم يوافقهم على أكاذيبهم واتهاماتهم الدينية للنبي محمد وللإسلام بعامه، وفي ذلك يقول **يوهان فوك**: "لقد كان متهماً عند اللاهوتيين بأنه حر التفكير، ولم يسايرهم في إدعائهم أن محمداً كان نبياً زائفاً وغشاشاً، وأن ديانتهم خرافات مضحكة، ولم يشأ أن يقسم تاريخ العالم إلى نصفين: نصف مقدس ونصف دينيوي profane، بل وضع العالم

²⁷ - المرجع ذاته، الصفحة 117

²⁸ - عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين؛ ينظر في الصفحة 300.

الإسلامي في قلب التاريخ العالمي. وفوق كل ذلك كان يعبر عن أرائه هذه بصراحة تامة دون أن يحفل بما عسى أن يترتب عليها من نتائج. فجلب هذا عليه الكساد²⁹. وهكذا حارب اللاهوتيون، والملاحدة، فتصدوا له، كما تصدى له أستاذه اسخولتنز؛ فدفع الثمن غاليا نتيجة تقديم لمكانة الإسلام، وتغانيه في الدفاع عن العربية والرسول صلى الله عليه وسلم، ودراسة الأدب والتاريخ العربيين. وقد قال في رسالته له أن إن الدراسات العربية التي أنتجها كانت أقل ما مما يجب بسبب فقره وسوء أحواله، ولو تحسنت أحواله المالية؛ لنشر كتباً عربية أكثر مما نشر. وكان شهيد الأدب العربي، كما قال.

حاصل القول، إن المستشرق رايسكة هو أول من أسس الدراسات العربية في ألمانيا، وأول مستشرق ألماني وقف حياته على الدفاع عن العقيدة الإسلامية والاهتمام باللغة العربية والحضارة الإسلامية دراسةً وترجمةً. وأول من واجه الملاحدة، وعلماء اللاهوت ودعا إلى دراسة الدين، ودافع عن اللغة العربية بحيث تدرس لذاتها، وكان ذلك في فترة لم يكن أحد يهتم بالدراسات العربية وبقي من آثاره برغم الداء والأعداء : معلقة طرفه 1743م، تاريخ أبي الفداء 1754م، الرسالة الهزلية لابن زيدون 1755م، لامية الطغرائي 1756م. وبعد خمسين سنة من وفاته بدأت الدراسات العربية بالمعنى الصحيح.

7- رد جمال الدين الأفغاني على شبهات رينان الإلحادية اتجاه الإسلام:

وجمال الدين الأفغاني، في تعليه على رينان المنشور في جريدة journal des Débats، (بتاريخ يوم الجمعة مايو سنة 1883م)، يدحض دعاوي رينان التي تطرقنا إليها سالفاً، وفي الوقت ذاته يذكره بأن هذا الموقف من العلم ليس موقف الإسلام وحده، بل موقف المسيحية أيضاً. يقول جمال الدين الأفغاني: "ننقل هنا عن نص تعلي الأفغاني كما أعدت نشره الأنسة جواشن في ترجمة كتابها للرد على الدهريين لجمال الدين الأفغاني، باريس سنة 1942، الملحق 174-185" " الحق أن الدين الإسلامي حاول خلق العلم ووقف تقدمه. وعلى هذا النحو أفلح في تعويق الحركة العقلية

²⁹ - المرجع ذاته، الصفحة 301.

والفلسفية، وفي صرف العقول عن البحث عن الحقيقة العلمية، ومثل هذه المحاولة، إذ لم أكن مخطئاً، قد قام بها الدين المسيحي، وبحسب علمي إن الزعماء الموقرين للكنيسة الكاثوليكية لم يكفوا حتى الآن عن ذلك. إنهم يواصلون الكفاح القويّ ضد ما يسمونه روح الحيرة والضلال".³⁰

وفي تعقيبهِ على رد جمال الدين الأفغاني أبصر رينان ما في هذه الفقرة من لفت نظر إليه لأنه لم يتكلم عن اضطهاد المسيحية كما تكلم عن اضطهاد الإسلام للعلم، فبادر إلى الإقرار بصحة هذا التنبيه، فقال " وثم جانب بدوّث، فيه للشيخ جمال الدين، أنني لم أكن عادلاً، وهو أنني لم أفصل القول بما فيه الكفاية عن هذه الفكرة، وهو أن كل دين موحى به منقاد إلى إبداء الأداء للعلم الوضعي، وأن المسيحية في هذا الشأن صنعت صنعة الإسلام. وهذا أمرٌ لاشك فيه. إن جاليليو لم تُعامله الكاثوليكية معاملة أفضل من المعاملة التي عامل الإسلام بها ابن رشد. إن جاليليو عثر على الحقيقة وهو يقيم في بلد كاثوليكي، على رغم أنف الكاثوليكية، مثلما أن ابن رشد تغلسف على نحو نبيل في بلاد الإسلام، فإن كنت لم أقم بمزيد من الإلحاح في تأكيد هذه النقطة، فذلك أن أرائي في هذا الصدد معروفة بدرجة كافية بحيث لم أحتج العودة إليها أمام جمهور مطلع على أعمالي. ولقد قلت مراراً كافية تغني عن تكرار ذلك في كل مناسبة، إن العقل الإنساني يجب أن يتخلص من كل عقيدة قائمة على الخوارق، إن شاء أن يتوفر على عمله الجوهري، إن أراد هو تشييد العلم الوضعي، ولا يستوجب هذا هدماً عنيفاً، ولا قطيعة مفاجئة. ولا يقتضي الأمر من المسيحي أن يتخلص من مسيحيتِهِ، كما لا يقتضي من المسلم أن يتخلّى من إسلامه. وإنما المطلوب من المستنيرين من المسيحيين ومن المسلمين هو أن يصلوا إلى هذه الحالة من الاستواء المتسامح التي تصبح فيها العقائد الدينية غير مؤذية. وهذا أمر قد تام في نصف البلاد المسيحية تقريباً؛ فلنؤمن أن يحدث الشيء نفسه بالنسبة إلى الإسلام".³¹

ونأتى إلى مسألة أخرى أثرها جمال الدين الأفغاني، وهي أن رينان في محاضرتِهِ بدا كما لو كان ينكر مقدماً أي إمكان للنهضة العلمية والتقدم الحضاري بين المسلمين، بينما تحققت هذه النهضة العلمية وذلك التقدم الحضاري بين المسيحيين، ويندهش جمال الدين الأفغاني من حكم رينان السابق

³⁰ - جواشن: الدهرين لجمال الدين الأفغاني، باريس سنة 1942، الملحق 178.

³¹ - عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين؛ ينظر في الصفحة 316.

على مستقبل المسلمين، ويرى أنه سيحدث للمسلمين حين يتحرروا من وصاية الدين الإسلامي مثلما حدث للمسيحيين حين تحرروا منذ عصر النهضة الأوروبية من وصاية الدين المسيحي.³²

يقول جمال الدين في تعقيبه على رينان: "إذا كان صحيحاً أن الدين الإسلامي عقبة في سبيل تقدم العلوم، فهل في وسع المرء أن يؤكد أن هذه العقبة لا تزول ذات يوم؟ وفيه يختلف الدين الإسلامي عن سائر الأديان في هذه النقطة؟ إن الأديان جميعها غير متسامحة، كلاً منها على طريقته. والدين المسيحي، أعني أن المجتمع الذي اتبع إلهاماته، وتعاليمه وكونه على صورته - د خرج من العصر الأول الذي الذي أشرت إليه (أي عصر وحياء الدين المسيحي): ويبدو أنه، قد صار حرّاً ومستقلاً. يتقدم بسرعة على طريق التقدم والعلوم، بينما المجتمع الإنساني لم يتحرر بعدُ من وصاية الدين. فإن تذكرنا أن الدين المسيحي قد سبق وجوده في العالم وجود الدين الإسلامي بعدة رون. فإنني لا أملك أن أمنع نفسي من الأمل في أن يصل المجتمع الإسلامي ذات يوم إلى تحطيم قيوده وإلى السر بعزمٍ في طريق المدينة على غرار المجتمع الغربي الذي لم يكن الدين المسيحي عقبة في سبيله لا يمكن التغلب عليها، رغم قساوة الدين المسيحي وعدم تسامحه، كلا، لا أستطيع أن أقر بأن الإسلام محروم من هذا الأمل. وأنا هنا لا أدافع، أمام السيد رينان، عن قضية الدين الإسلامي؛ وإنما عن قضية عدة مئات من ملايين الناس الذين سيقضي عليهم هكذا بالعيش في الوحشية والجهل".³³

لكن رينان في تعقيبه على ملاحظة جمال الدين هذه يُريغ إلى أن يبريء نفسه من تهمة سوء التمني، على النحو الذي أوردناه من قبل بحروفه، ويقدر أن النهضة التي يتمناها جمال الدين للمسلمين لن تتم بتأييد من الإسلام الرسمي، كما لن تتم النهضة في ديار المسيحيين بتأييد من المسيحية الرسمية. يقول رينان: "أما أن يسهم شيوخ الدين الإسلامي في هذا العمل العظيم، فهذا أمرٌ سيسرني جداً، لكن أن لا أتكلم بصراحة ولأقل إنني أشك بعض الشك في أنهم سيفعلون ذلك. ستكون شخصيات ممتازة - القليلون - منهم سيكونون من الامتياز بقدر الشيخ جمال الدين،

³² - المرجع ذاته، الصفحة 318.

³³ - المرجع ذاته، الصفحة 318.

سينفصلون عن الإسلام، كما انفصلنا نحن عن الكاثوليكية وبعض البلاد مع الزمن ستقطع تقريباً علاقاتها بدين القرآن، لكنني أشك في أن تتم حركة النهضة بتأييد من الإسلام الرسمي"³⁴.

8- قائمة المراجع

أ - المراجع بالفرنسية:

1 Tobias Hubientte, Orientalism past and present : An introduction to a postcolonial critique " The Stockholm Journal of East Asian Studies ; vol 13/2003 ; p80.

2- Renan, E, Histoire général et système compare des langues sémitique , Paris.1897

ب - المراجع بالعربية:

¹ - محمد السيد الجليند؛ الإستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - مصر-1999.

2- إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع- القاهرة- 2016.

3- عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثية ومخاوفها، التبشير، الاستشراق، الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، ودراسة منهجية وشاملة للغزو الفكري، دار القلم - دمشق - 2000.

4 - إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط01، 2006.

5- إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، تر: أسعد الحسين، دار نينوي للدراسات و النشر و التوزيع، سورية- دمشق، د(ط)، 2011.

6- إدوارد سعيد، صور المثقف، تر: غسان غصن، مر: منى أنيس، دار النهار للنشر، بيروت، د(ط)، 1996.

7- يوهان فوك، في تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم ، دار المدار الإسلامي - بنغازي - 2002.

³⁴ - المرجع ذاته، الصفحة 319.

الموسوعات:

- 1 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1 دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، 1982.
- 2-عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط3 تموز/يوليو 1992